حوار الذات ومعالم الاجتهاد عند الأمير عبد القادر
من خلال رسالته "حسام الدّين لقطع شُبَه المرتدّين"

د.حمحامي مختـار
كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية
جامعة وهران

الأمير عبد القادر

الأمير عبد القادر[1] ابن محيي الدين ينتهي نسبه إلى الحسن (السبط) بن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه ما –، ولد في 23 رجب 1222هـ / مايو 1807م، وذلك بقرية "القيطنة" بوادي الحمّام من منطقة معسكر بالقطر الجزائري، درس علوم الشّرع واللّغة والمنطق على ما كان معهودا في بيئته، نشأ على الفكر الصوفي في كنف أبيه محي الدّين زعيم الطّريقة القادرية، رحل مع والده لفريضة الحجّ عامّ 1241هـ/ 1825م، فدخل تونس ثمّ مصر ثمّ الحجاز ثمّ البلاد الشّامية ثمّ بغداد، ثمّ العودة إلى الحجاز، ثمّ عاد إلى الجزائر عام 1828 م مرورًا بمصر وبرقة وطرابلس ثمّ تونس.

تولّى قيادة حركة المقاومة الوطنية (الجهاد) ما بين سنة 1832م – 1847م بعد والده محيي الدين الذي أشرف على لَمْلَمَةِ بعض القبائل الغربية للجهاد ضد الغزو الفرنسي للجزائر منذ سنة 1830م، ولَمّا تمّت له البيعة أقام نظامه على نمط الدّول[2]، عيّن الوزراء والكتاب وقادة الجيش، وراسل ملوك العرب والأوربيين وغيرهم، وسعى لاكتساب الصناعة الحربية، ورتّب أفراد الجيش على حسب مسؤولياتهم، ووحّد هندامهم ...

لم يكن الواقع الجزائري آنذاك قائما على وحدة الكيان السياسي الطّوعي المبني على الوعي بالمصير المشترك، بل كانت عقيدة الولاء مرتبطة بالنّظام العشائري، ولذلك نجد قبائل قد ربطت مصالحها بمناصرة الغازي الفرنسي ضد المقاومة الجزائرية، وهذا الوضع ليس جديدا في بيئة ألفت مناصرة القويّ ولو كان معاديا لعقيدة الأنا الجمعي ، فقد سجّل عبد القادر المشرفي [3] في "بهجة النّاظر" مواقف مخزية لقبائل بني عامر المجنّدة مع الاستعمار الإسباني لما دخل وهران ضدّ المقاومة الوطنية.

صحيح أنّ الأمير عبد القادر لم يطلب الإمارة ولكن حُمّل إيّاها حملا، رضيه النّابذون للهيمنة الاستعمارية قائدا لجهادهم وإماما لدينهم وأميرا لتجمعهم، لم يُكتب لهذه الحركة الجهادية رضى جميع القيادات الجزائرية لأسباب عديدة، ممّا أوقع خللا داخل النّسيج الاجتماعي الجزائري، نتجت عنه صراعات دامية بين أبناء الدين والوطن، بل انضمت قبائل عديدة لتقاتل إلى جانب الفرنسيين ضد جيش الأمير عبد القادر، وأنّ الضّعف الذي اعترى المقاومة الوطنية منذ معاهدة تافنة سنة: 1837م، إنّما كان بسبب التنافر الدّاخلي، فقد وصف عمّ الأمير علي أبو طالب مؤيداً لعقد الصلح لَمّا وجد معارضة في مجلس الشورى، قال: "فالنظر أيها السادة، إنّما هو للإمام لا لغيره، وكيف تذهبون إلى أنّ عدم قبول الصّلح أولى من قبوله! **مع علمكم بقلّة الأنصار والأعوان وكثرة المشاغبين والمفسدين في الأقطار** والأوطان...!"[4]، ولم يزل الضّعف يدبّ في جيش المقاومة بسبب المناوئين للأمير وانضمامهم لجيش الاستعمار ممّا جرّأ الفرنسيين على نقض معاهدة تافنة سنة 1839م، ثمّ سقوط عاصمة الأمير «الزمالة»

في 16 من شهر ماي سنة 1843م، وبعد مقاومة شرسة اضطر الأمير إلى الالتجاء إلى المغرب الأقصى في تلك السنة نفسها، غير أنّ السلطان المغربي كان متواطئا – لضعفه – مع الاستعمار، فجهّز الجيوش لملاحقة الأمير، وإلقاء القبض عليه.

في هذه الظّروف الصّعبة كتب الأمير عبد القادر رسالته الموسومة بـ"حسام الدّين لقطع شُبَه المرتدّين"، ظروف انخرط فيها قطيع من أبناء الملّة في حزب الصّليبيين الغزاة، تهاوت فيها شرائع الإسلام إلاّ ما كان طوعيّا على انفراد، وما بقي منها شاخصا كمنصب الإفتاء وإمامة الصّلاة لبعض المساجد وأحوال الزّواج والطّلاق فلقطع الطّريق أمام التّمرد الواقع أو المتوقع من أبناء الجزائر.

رسالة "حسام الدّين لقطع شُبَه المرتدّين" :

تُعتبر رسالة "**حسام الدّين لقطع شُبَه المرتدّين**" أنموذجا للجدل الفقهي السّياسي بين علماء الجزائر بداية تساقط المدن الجزائرية في يد الاستعمار الفرنسي، والذات الواعية للأمّة تتشكّل وتُختزَن في علمائها، وهي ذات تُعبّر عن وحدة الانتماء للدّين والوطن والمذهب الفقهي، غير أنّها مُشبَّعة باختلاف الاجتهاد وتَعدُّد البدائل.
واختلاف القناعات العلمية وتفاعلها مع معطيات الواقع لدى العلماء من نتائج النّظر في الاستدلال على تلمس أصلح الأوضاع. إذا كان الأمر يتعلّق بخاصّة النّفس – أيّ بالفعل الفردي الذي لا يتعدّى ذلك الفرد – فالخطب هين تسعه النّفوس الأخرى تحت وطأة "عدم جواز تقليد المجتهد لمجتهد آخر"، أمّا إذا تعلّق الأمر بعموم الأمّة فلا فسحة إلاّ لما ترجّح بقوّة العقود والالتزامات عند وجود العقد الجامع لسلطة النّظر والاستدلال المصلحي (السّلطة السّياسيّة الشّرعية).
كتب الأمير عبد القادر رسالة "حسام الدّين لقطع شُبَه المرتدّين" في ذي الحجّة سنة: 1258هـ[5] الموافق لـ أواخر جانفي 1843م[6] أي قبيل سقوط عاصمته "الزمالة"، فهو بحاجة ماسة للمدد البشري أكثر من ذي قبل، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنّ حديثه منصبّ بالأولوية على المقاتلين له المتعاونين مع الاستعمار الفرنسي، ويشمل بالتّبع الباقين تحت سلطته وهيمنته من غير ضرورة حقيقية.
"**حسام الدّين لقطع شُبَه المرتدّين**" رسالة فقهية للردّ على المخالف، وإبطال ما يظنّه المخالف أدلّة شرعية، وليست هي إلاّ شُبَها لا مُتَمَسّكَ له فيها في رأي المؤلف، فهي تدخل ضمن رسائل الردود في مجال الفقه السّياسي، وموضوعها حكم ترك الهجرة من البلد الذي تغلّب عليه الكفّار مع الرّكون إليه والرّضى بذمّته. وكلام الأمير عبد القادر لا يستهدف إلاّ مَن كان هذا حاله، ولا يشمل المستضعف الذي لا يجد سبيلا للهجرة، حيث قال: "لم يعذر الله – تعالى – في المقام تحت ذمّة الكافر إلاّ الذي لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلا، مثّلَه سادتُنا بالأعمى الذي لا يجد قائدا، وبالزّمن الذي لا يجد حاملا، مع نيتهما أنّهما مهما وجدا ذلك هاجرا"[7].

من خلال عنوان الرّسالة ونصوصها نجد أنّ الأمير حكم بالردّة على مَن تناولهم بالكلام، وكان استدلاله على ذلك بما أجمع عليه علماء الإسلام من غير خلاف مستندا إلى العديد من آيات القرآن الكريم وغيرها من الأحاديث النّبوية، ومن قبله حكى الونشريسي الإجماع في ذلك فقال: "فهو تحريم مقطوع به من الدّين [أي تحريم الإقامة وترك الهجرة]، كتحريم الميتة، والدّم، ولحم الخنزير، وقتل النّفس بغير حقّ، وأخواتها من الكلّيات الخمس، التي أطبق أرباب الملل والأديان على تحريمها. ومَن خالف – الآن – في ذلك أو رام الخلاف من المقيمين معهم والرّاكنين إليهم، فجوّز هذه الإقامة، واستخفّ أمرها، واستسهل حكمها، فهو مارق من الدّين، وفارق لجماعة المسلمين، ومحجوج بما لا مدفع فيه لمسلم، ومسبوق بالإجماع الذي لا سبيل إلى مخالفته وخرق سبيله"[8]، وقد نقل الأمير هذا الكلام في رسالته مع بعض التّصرف[9]، وسبب ذلك أنّه كان ينقل من حفظه القديم[10] ولم يتيسّر

له مراجعة مصادره، حيث قال في آخر الرّسالة: "تمّ – بحمد الله وحسن عونه – ما قصدناه جوابا لسؤال بعض المحبّين، وقطعا لشبه المرتدّين، ونحن مرابطون ولا كتاب معنا إذ ذاك" [11].لغة الرّسالة لغة عربية، قويّة المباني، وأفكارها متسلسلة، يأخذ بعضها بأعناق بعض، لم يكن كحاطب ليل لِمَن سبقه لِمَا ينقل، تنوعت مصادره بين فنون الشّرع ومذاهب أرباب النّظر، بالإضافة إلى القرآن الكريم ينقل عن موطأ مالك، والبخاري، وغيره من كتب السنّة الستة، وعن المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، لأبي العباس الونشريسي، ومختصر أبي الضياء خليل، والرّسالة لأبي زيد القيرواني، وحاشية ابن التلمساني على الشفا، وحسن المحاضرة لعبد الرّحمن السّيوطي، وأحكام القرآن لابن العربي، وينتقد نصر الدّين البيضاوي في أنوار التنزيل وأسرار التّأويل، ويحذر من قراءة الكشاف لجار الله الزمخشري دون الرجوع إلى انتقادات علماء أهل السّنة له في مواطن الاعتزال، وينقل عن عارضة الأحوذي شرح سنن الترمذي، وعن فتح الباري في شرح البخاري لابن حجر العسقلاني، ويوجّه ما أستدل به المخالفون من كلام شرف الدّين النّووي والرّافعي ... ولكن مع هذه الوفرة للمصادر فإنّه لا يشير إلى طبيعة الاستفادة، هل هي بالواسطة أو نقلا مباشرة إلاّ في مواضع معدودة ؟

معالم الاجتهاد

ليس خفيّا على القارئ أن يلحظ تأثر الأمير عبد القادر بِمَن سبقه من الفقهاء، خاصّة بما في المعيار المعرب للونشريسي، على أنّنا لا ندّعي خلو رسالة "حسام الدّين لقطع شُبَه المرتدّين" من بصمات الأمير، بل تصرفه ظاهرٌ فيها، دالٌّ على المعانات والإلمام : أمّا المعانات فلا تحتاج إلى استدلال، وأمّا الإلمام بموضوع الرّسالة فيُخبر عن معالم الاجتهاد، حيازةً للآلة، وتوظيفا لها على مستوى الاجتهاد في إنزال النّص (تحقيق المناط) ، ومستوى الا جتهاد في غياب النّص الخاص (تلمس مقاصد الشّرع) ، ويمكن أن نذكر تنبيهات زيادة على القطع بحصول مرتبة حفظ المذهب التي يتمّ بها إنزال الأحكام على مواقع العيان :

1. اطلاعه على ما قاله مَن سبق من أهل العلم، فذكر أنّ هذه النّازلة أوّل ما وقعت في القرن الخامس الهجري وبعده [12]، يشير إلى ما وقع بالأندلس وقد ذكر قصّة حاكم – المعتمد بن عبّاد (ت: 488هـ) – قرطبة واشبيلية الذي استنصر بالمسحيين على يوسف ابن تشفين (ت:500هـ)[13].
2. أحكام تارك الهجرة من دار غلب عليه الكفّار أصلُها أحكام مَن أسلم من أهل الكفر ولم يُهاجر، فردّ أهل النّظر والاجتهاد الفرع إلى أصله بجامع الدّخول تحت ذمّة الكفّار، مع اعتبار القدرة على الهجرة والعجز عن ذلك.
3. إنّ مولاة الكفار والرّكون إليهم حرام بنصوص [14] القرآن الكريم، وناصبُ الخلاف في ذلك – استخفافا لأمرها – قد خالف الإجماع، فهو مارق من الدّين[15].
4. اعتماده على الاجتهاد المقاصدي باعتبار أنّ المخالف قال بجواز ترك الهجرة حفاظا على المال، فأقام الأمير الموازنة ما بين الضرورات الخمس من خلال ما نقله عن ابن مرزوق نقلا من المعيار [16]، فالضرورات تترتّب من الأعلى إلى الأدنى كما يلي : الدّين ثمّ النّفس ثمّ العقل ثمّ النّسل ثمّ المال.

حوار الذات

إنّ انخرام السّلطة السّياسية الجامعة للأمّة الجزائرية في بداية المقاومة، وعجز المقدّرات الوطنية عن عزل الجيوش الفرنسية الاستعمارية خارج المدن، وغير ذلك من الأسباب المتزامنة مع قيام سلطة الأمير عبد القادر، كلّ ذلك ساعد على رسم خريطة سُكانية للجزائريين على أساس النّفوذ الاستعماري، فقسم خاضع للسلطة الاستعمارية، وقسم آخر خارج عن هذه السلطة الاستعمارية، له كيانه المستقل، يرى الانعزال (الهجرة) عن الكيان الاستعماري أدنى درجات المقاومة (الجهاد)، أما القسم الأول فيرى أنّ البقاء تحت غلبة الاستعمار شرٌّ، غير أنّ ضرره أقل من ضرر المصير المجهول الذي يتحتّم جرّاء هجرة المدن المسيطر عليها الاستعمار هذه

صورة "الأنا الجمعي" في حالة التّنافر الفكري ضمن المرجعية الإسلامية، تراشقت أطرافه بسهام الأقلام لتصيب العقول والأفهام إلاّ أنّها أدمت القلوب لتُروِيَ لَهَث الاستعمار، تأتي رسالة "**حسام الدّين لقطع شُبَه المرتدّين**" للأمير عبد القادر متأخرة في الزّمن وكأنّها خاتمة الرّدود على المخالفين، والظّاهر من مراجعة الوثائق الخاصّة بذلك أنّ السّنوات الأولى من سقوط الجزائر العاصمة في يد الفرنسيين كانت حافلة برسائل عديدة في موضوع الهجرة، من بينها رسالة قدور بن رويلة كاتب الأمير عبد القادر أرسلها إلى مصطفى بن الكبابطي مفتي الجزائر العاصمة أنّبه فيها على تودّده للفرنسيين[17]، وفي آخرها طالب فقهاء الجزائر العاصمة أن يردّوا عليها إن وجدوا ردّا. ومن الرّدود المنشورة التي انبرت لتدافع عن الماكثين مع الفرنسيين رسالة محمّد بن الشّاهد مفتي الجزائر المتوفّى سنة 1253هـ الموافق لـ (1836 أو 1837م)[18] دفع بها عن علماء الجزائر تهمةَ الرِدّة، وأظهر فيها سبب البقاء تحت ذمة الفرنسيين، المتمثل في العجز عن الهجرة، لفقدان الأمن بالطّرق والمسالك، وعدم توفّر الظّروف المعيشية بالجبال والبراري [19]، مع قلّة المال المبلغ لديار الأمان وسلامة الأبدان[20]، ثمّ هم مع بقائهم تحت ذمّة الاستعمار لم يُجبروا على ترك الإسلام أو عدم إعلان الأذان في الصّلوات الخمس مع سيرورة أحكام الإسلام في خاصة أنفس الأفراد، وهدم بعض المساجد وتعطيل بعضها الآخر وحفر المقابر وغير ذلك ليس من الدّين الذي هو الإسلام[21].

كتب الأمير عبد القادر رسالة "**حسام الدّين لقطع شُبَه المرتدّين** " في ذي الحجة من سنة 1258هـ الموافق لأواخر جانفي 1843م، لردّ الشبهات التي تعلّق بها الخصوم كما هو واضح من العنوان ومن محتوى الرسالة، ومن هذه الشبهات ترك الهجرة حفاظا على المال، فقال في مقدمة رسالته: "الرّاكن إلى الكفار، الدّاخل تحت ذمّة أهل البوار، واحد من رجلين: إمّا رجل كذّب الله في ضمانه لرزقه – نعوذ بالله من كفره وحمقه – وقال: إن هاجرت متّ جوعا، ... وإمّا رجل متكالب على الدنيا، أعماه وأصمّه حبُّها، يريد الظفر بها سواء كانت مع الكفر أو مع الإسلام"[22]، وشبهة تَمَكُّن الماكثين من إقامة الدّين يعنى أنّهم لا يُمنعون من الصلاة وغيرها ممّا تمّ الإشارة إليه، أنّ التّمكن لا يكون إلاّ بالحماية، ولا حماية لأحد من الجزائريين إذا أراد الفرنسيون أن يجروا عليه أيَّ حكم من أحكامه[23]، علما أنّ "أحكام الكافر وشرائعه وتصرفاته جارية على شريفهم ووضيعهم، ويؤدّون إليه المغارم، ويحملون أثقاله إذا أراد الغزو على المسلمين، ويقاتلون معه"[24] .. لم تخلُ رسالةُ "**حسام الدّين لقطع شُبَه المرتدّين**" من الأسلوب التّهكمي والتّنقيص من المخالف ضمن قيم "الأنا الجمعي"، ومن أمثلة هذا المسلك قوله: "والآخر رجل قرأ بعض أبواب الفقه، فعلم بعض أحكام الصّلاة والنّكاح والبيوع، فظن أنّه وصل إلى غاية يستحقّ أن يُسمّى بها عالما، وصار يقول في دين الله ما ليس له به علم، ويفتري على الله الكذب {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ}[الأنعام/21]، ويستدلّ بآيات وأحاديث وكلام الأئمّة، وهو – مع ذلك – لا يُحسن النّطق والتّلفظ بمبانيها، فكيف بالغوص على معانيها، فالحمار أحسن حالا من هذا إذ جهل الحمار بسيط وجهله مركّب:

قال حمار الحكيم يوما *** لو أنصفوني لكنت أركب

لأنّني جاهل بسيط *** وراكبي جاهل مركّب

والجهل المركّب أصل من أصول الكفر"[25]. وهذا الأسلوب لم يتميّز به الأمير دون غيره، بل كان سلاحا نفسيا تقلّده المتحاورون من الجهتين بغية عزل الخصم عن الأتباع، فرسالة ابن الشّاهد مشحونة بمثله وممّا قاله: "وانظروا إلى هذه الإلتزمات التي لزمتكم، وهي مأخوذة من كلامكم، وأنتم لا شعور لكم بها، ولكن لا شيء أعظم محنة من الجهل المركب، أعاذنا الله منه ووقانا شرور أنفسنا وعرّفنا قدرها"[26]، وقال: "... مع عدم إتقانك للعلوم، وعدم تفرقتك بين المنطوق والمفهوم، فكان الأحق – واللهِ – أن تلزم زوايا الخمول ..."[27].وختاما لهذه القراءة في رسالة الأمير عبد القادر ندرك بأنّ الحوار داخل الذات الوطنية لم يكن موجّها للبناء بقدر ما كان وسيلةَ حفاظٍ على المقولات، كان بإمكانه أن يحقّق قفزات حضارية معتبرة في تاريخ الأمّة الجزائرية ما بعد العثمانيين، إنّ غياب مبدأ نسبية الاجتهاد، واحتمالية ورود الخطأ النّاتج عن سوء التّقدير أو قصور الآلة أو ضعف الموارد المسخّرة

أو عدم كفاءة تحقيق المناط ... قد ولّد فينا – منذ زمن – الغرور مع خواء النّفوس، والتّواكل مع قصور الباع، والحسد مع الافتقار إلى المحسود ... بالإضافة إلى ملئ الآذان بدعوة القطيعة مع أسباب القوى الذاتية المخبّأة في عمق الموروث، وِراثة واعية من العلم بالوحي والنّماذج النّاجحة لذلك في وقائع التّاريخ الجزائري.

الهوامش

1 – ينظر: جوهرة العقول في ذكر آل الرسول، للشيخ عبد الرحمن بن محمد الفاسي. والبستان في ذكر العلماء الأعيان، للفقيه عبد الله الونشريسي. ورياض الأزهار في عدد آل النبي المختار، للمقري التلمساني.

2 – تحفة الزائر، محمد بن عبد القادر الجزائري، ج: 1 ، ص: 103.

3 – عبد القادر المشرفي الغريسي (ت : 1192هـ/1778م)، وكتابه : "بهجة النّاظر في أخبار الدّاخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر"، تحق: محمّد بن عبد الكريم، بيروت، دار مكتبة الحياة.

4 – محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، «سيرته القلمية»، (الإسكندرية، المطبعة التجارية، 1903)، ج: 1 ، ص: 176.

5 – حسام الدّين لقطع شُبَه المرتدّين، ص : 66.

6 – في 16 ماي سنة 1843، سقطت عاصمة الأمير «الزمالة» بأيدي الفرنسيين، وهي من الأحداث التي كان لها وقع سيء على تاريخ الأمير؛ بل هي من أخطر الضربات التي وجهت للمقاومة الوطنية آنذاك وأشدها ضرراً، يقول عنها ابنه محمد في تحفة الزائر: «وبالجملة فإنها (واقعة سقوط الزمالة) كانت من أعظم الوقائع التي لا تؤدي العبارة تفصيلها ولا يُدْرِكُ اللسان تحصيلها...». ثمّ اضطر الأمير إلى الالتجاء إلى المغرب الأقصى لشدة محاربة الفرنسيين له ورفض السلطان المغربي مساعدته، بل إنه عمل على محاربته.
ينظر: تحفة الزائر، محمد بن عبد القادر الجزائري، ج : 1 ، ص: 280.

7 – حسام الدّين لقطع شُبَه المرتدّين، ص : 54.

8 – أسنى المتاجر في بيان أحكام من تغلّب على وطنه النّصارى ولم يهاجر، أبو العباس الونشريسي، ص : 76 و 77.

9 – حسام الدّين لقطع شُبَه المرتدّين، ص : 55.

10 – المصدر نفسه، ص : 56.

11 – المصدر نفسه، ص : 66.

12 – المصدر نفسه، ص : 62.

13 – المصدر نفسه، ص : 63.

14 – النّص : ما دلّ على مراد المتكلّم به قطعا.

15 – حسام الدّين لقطع شُبَه المرتدّين، ص : 55.

16 – المصدر نفسه، ص : 53.

17 – ينظر: حكم الهجرة من خلال ثلاث رسائل جزائرية، محمد بن عبد الكريم، (الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، سنة: 1981م)، ص : 12.

18 – رسالة محمد بن الشاهد، ص : 123.

19 – المصدر نفسه، ص : 117.

20 – المصدر نفسه، ص : 116.

21 – المصدر نفسه، ص : 114.

[2]2 – حسام الدّين لقطع شُبَه المرتدّين، ص : 46. وينظر : ص 60 منها.

[2]3 – ينظر: المصدر نفسه، ص : 59.

[2]4 – المصدر نفسه، ص : 61.

[2]5 – المصدر نفسه، ص : 49 و 50.

[2]6 – رسالة محمد بن الشاهد، ص : 112.

[2]7 – المصدر نفسه، ص : 121.